

أى إسبانيا !

للأديب حسين شوقي

أى إسبانيا ! إنى لأذرف دمعة صادقة على نكبتك لأنك
وطنى الثانى ! ألم أقض طفولتى فى ربوعك أثناء الحرب العالمية
حينما نفى إليك والدى ؟

أى إسبانيا ! أصبح أن الموت والدمار نزلا بمدنك التى كانت
رؤيتها بهجة للنفس وممتعة للنظر ؟

أى إسبانيا ! أصبح أن المرم يستنشق رائحة البارود البغيضة
من حقول فلسية حيث كانت تعبق رائحة البرتقال ؟

أصبح أن بدمار قد امتدت إلى غرف الحمراء حيث مرحت
الأميرات العربيات فى شباب الدهر ، بين أحضان الترف والنعيم ؟
أصبح أن كنائسك الفخمة قد أحرقت أو تهدمت ، وكانت
مقصد النيبالات الإسبانيات — أيام فتوح شارل الخامس وفليب
الثانى — للتضرع والصلاة ، كي ترد إليهن أزواجهن من الحرب
سالمين مظفرين ؟ . .

أى إسبانيا ! أصبح أن قومك الذين كانوا بالأمس مضرب
الأمثال فى اللطف والدعة وإكرام الضيف والترحيب بالغريب
جن جنونهم بغتة ، كأنهم أصيبوا بداء الصرع ، فأخذوا يقتلون
بمئة ويسرة ؟

أصبح أن قلوبهم غاظت إلى حد أنهم يقطعون أيدي الحسان
الناعمة كي يسلبوها حليها ، تلك الأيدي التى ما خلقت إلا للتدليل
والثقيل ؟

أصبح أنهم شتموا مصارعة الثيران فاستبدلوا بها الانفاس
البشرية ؟

أى إسبانيا ! أين كانت كامنة هذه القسوة ؟

بل من أين هبطت عليك ؟

إن بعض الكتاب الغربيين ينسبها إلى الدم العربى الذى
يجرى فى عروق الإسبان اليوم ، ولكن الله يشهد أن هذا الدم
يرى ، لأنه دم أموى نبيل ! إن أسلافنا العرب الذين استوطنوا
الأندلس كانوا أبطالاً ولم يكونوا أنذالا ، أنهم لم يقتلوا العجزة
والأطفال والنساء !

بل إن العرب فقدوا ثمار فتوحهم العظيمة بما كانوا يبذلون

من الحلم المتناهى إزاء الشعوب المغلوبة ! ألم يتركوا لها حرية العقائد
والعادات ، مكثفين بأخذ الجزية ؟

إذن ما مصدر هذه القسوة ؟

إن « أنامونو » الفيلسوف الأسبانى الشهير الذى توفى أخيراً
بنفسها إلى دم النور (بفتح الواو) المنتشرين بكثرة فى ربوع
إسبانيا ، وبخاصة فى الجنوب ، لأن هؤلاء القوم لهم — على حد
زعمه — غرائز بعيدة عن المجتمع ، بل وحشية . وما يؤيد قوله
هذا ما حدث فى برشلونة من أعمال القتل والحرق والسلب فقد
قام بمعظمها عمال من الجنوب لم يستوطنوا برشلونة إلا فى السنوات
الآخيرة . . .

أى إسبانيا ! أصبح أن حسانك قد ملان أقنعة روسن الجيلة
من « الدانتلا » والمعروف « بالماتليا » ففضان عليها خوذة الجند
الحديدية ؟

أصبح أنهن حطمن بأيدين تمائيل العذراء التى طالما توسلن إليها
كى ترقق لهن قلب الماشق النافر ؟

أصبح أنهن أصبحن يقتلن بالحديد والنار بعد ما قتلن زمنا
بسهم اللواحظ وحد الجفون ؟

أصبح أنهن شتمن أناشيد الحب فأخذن يحرضن خطابهن
الرشيقين ذوى العيون العربية البراقة على الذهاب إلى ساحات الموت ؟
أى إسبانيا ! أصبح أن قومك يهدمون مآثر ماضيهم الماجيد
بزعم التقدم والرقى ؟

رب ! كيف تمحى قرون متتابعة من العز والفخر ؟ هل من
المدنية أن تدفن المتاحف وتنسف الآثار ؟

ألا ينظرون إلى حسرة أبناء العالم الجديد لافتقارهم إلى الآثار
وهم قدوة المدنية وللتقدم ؟

ألا يرون كيف يقتل هؤلاء القوم الكنائس والقصور الأثرية
من أوروبا ، حجراً حجراً ، لاعادة تركيبها فى بلادهم ، رغم
ما يكلفهم عملهم هذا من جهد ومال ؟

أى سرفانتس (١) ! هلا تركت ضجعتك الهنيئة الأبدية لحظة
لتشاهد مقدار عبث قومك ؟

أى سرفانتس ! إن صاحبك « دون كيخوت » لا قتل جنونا من
هؤلاء القوم جميعاً إذ جنونه برى . لا يتعدى مهاجمة الخراف
والطواحين ، أما هؤلاء فلا يهدأ لهم بال إلا بقتل الأطفال
والنساء والاخوان من بنى جلدتهم !

حسين شوقي

« كرامة ابن هاني »

(١) مؤلف قصة « دون كيخوت » الخالدة